

الزائر الليلي

الواعظ
ابراهيم دواني

الزائر الليلي

الواعظ إبراهيم دواني

2010 All rights reserved

Pub. No. SSB 8155 ARA

English title: The Nightly Visitor

German title: Der nächtliche Besucher

Call of Hope
P.O.Box 10 08 27
70007 Stuttgart
Germany

www.call-of-hope.com
contact-ara@call-of-hope.com

الفهرس

٣	كلمة المؤلف
٣	الزائر الليلي
٣	الزائر أصيب في السهد والقلق
٤	جواب المسيح والمحاذة المتبادلة بينهما
٥	كيف يولد الإنسان ثانية؟
٦	السبب الرئيسي لهذا العمل
٦	درس من العناصر الطبيعية
٧	قصة خلاص القبطان

كلمة المؤلف

المستكبرين ولم يفهموا ماهية الدين الصحيح وما كانوا من المنصفين العادلين قد أصدروا أحكاماً على المسيح دون الرجوع إلى الشريعة والحكم العادل الصريح المبني على السنة والدين الصحيح وكانوا في أحكامهم من الأشرار الظالمين ولم يعدلوا في حكمهم وصموا آذانهم عن صوت المنطق والضمير. ويلهم كم حكموا على أنبياء ظلماً وكانوا لهم من القاتلين. ولم يرضَ بذلك هذا الزائر الكريم لأن مثل تلك الأحكام تتنافى مع العدل والحق والدين القويم ولا يرضى الله عنها لأنها ليست مبنية على الحق وتفتقر إلى الإثبات والدليل. ولم تنتج إلا عن قلب مخدوع وعن اللؤم والبغض والتعصب الذميمة.

إن الله يتبرأ من حكم كهذا لأنه لم يصدر إلا عن الأشرار الأفاقين. وحدث مرة أنهم أجمعوا على حكم ظالم، بحق المسيح فأنهزم هذا الزائر وقال لهم: إن هذا ليس بالحكم الصحيح لأن ناموسنا لا يحكم على شخص بلا بينة ويتيح للمتهم أن يدافع عن نفسه بالحجة والبرهان والدليل فأجابوه بلهجة شريرة قائلين أعلك من الجليليين المتطرفين وهل سُمع أن نبياً قام من الجليل؟ أما هو فقد استمر في البحث والاستقصاء عن ذلك المعلم الكبير وكان يستقصي الأخبار عنه ويحفظها ويردها في ذهنه في كل حين. ولم يشأ أن يحكم حكماً ظاهراً لكنه حكم حكماً عادلاً وقد استنتج من تلك الأخبار مجتمعة أن أعمال المسيح وتعاليمه وعجائبه إن دلت على شيء فإنما تدل على صحة دعواه وأنه كان هو المسيح المنتظر ومثله لا يمكن إلا أن يكون المسيح الموعود أن يأتي ويجلس على كرسي داود ويؤسس ملكوتاً سماوياً لا يزول مدى الأجيال وإلى دهر الدهرين. ولا تقوى عليه قوات الأبالسة وسيبقى إلى أبد الأبد.

الزائر أصيب في السهد والقلق

قد انتاب هذا الزائر في أحد الأيام السهد والقلق وكان غير قادر على النوم لأنه قد ابتدأ يفكر في التعصب الأعمى الذي سيطر على رؤساء أمته الذين استمروا في الغلو بفصائلهم وعفتهم إزاء ذلك المعلم العظيم وكانوا في كل وقت يتعقبونه لكي يقضوا عليه وقد أجمعت كلمتهم على الفتك به وقتله أو تسليمه للسلطة الرومانية لتحكم عليه حكماً جائراً وتكون له من القاتلين، فكر كثيراً بهذه الأمور وقال في نفسه ماذا تكون النتيجة إذا نفذوا خططهم وقتلته السلطة الرومانية وكانوا هم آياها من المسلمين. ثم فكر في الضلال الذي أحيت به أمته وقال: ماذا تكون العاقبة بعد ارتكابهم ذلك العمل المشين إلا سوء المصير؟ أيحكم على

الله الذي لا إله إلا هو قد خلقنا على صورته ومثاله لنحيا إلى الأبد لكننا بزيغاننا وضلالنا قد شوهنا تلك الصورة فحكم علينا بالموت الأبدي والهلاك المبين. لكن الله الذي هو محبة لم يشأ هلاكنا فأراد أن يوجد لنا فداء فما كان منه إلا أن بشر بكلمة منه الذي صار بشراً سوياً وبذله لأجلنا أجمعين لكي نحظى باسمه على الحياة الأبدية والعفو العظيم وهو تعالى أكرم الأكرمين. فلنقبل خلاصه الذي أنعم به على العالمين ولنتناول كأس الخلاص من يديه ونكون له من الشاكرين. من الله أطلب لكل من يقرأ هذه النبذة التي تعالج الولادة الثانية للحياة الأبدية التي قلما ينتبه إليها الناس وهم لها من المهملين. ليهتم بهذه المسألة الهامة ويكون من المفكرين فيجد أن أشواق النفس وأمانيتها هي أن يولد الإنسان ثانية ويكون عند الله من المقربين. ذلك ما اختبرته بنفسه وإني لله من الشاكرين آمين.

الزائر الليلي

نشأ في بيت عريق ووُلد من أبوين تقيين وترى في حياة الإيمان والتقوى وكان يعيش في مخافة الله ويؤمن به وبالآخرة ويوم الدين وكان معدوداً من الصالحين. ودرس العلوم على أنواعها ونما في المعرفة والثقافة العالية وكان في مختلف العلوم من المتضلعين درس كتب التوراة والأنبياء والمزامير. وتعمق في دروس اللاهوت والفقه والشرع والدين ونبغ في كل هذه، وعاش تقياً وكان يصلي ويصوم ويزكي أمواله وكان من المتعبدين. وانتخب رئيساً دينياً فأمسى عضواً في مجلس السنهدريم الذي لا يدخله سوى الرجال الممتازين. وقد وصل إلى درجة عالية في الرقي وكان من الأشخاص المحترمين. كان عادلاً ومنصفاً ولم يكن من الرجال الغادرين. وكان لطيف المعشر سموحاً رقيق القلب ومحباً للبشر أجمعين ولم يكن مرة من الأغبياء المتعصبين. وعرف أن القلب نجيس لا يعرفه إلا الله رب العالمين وأن كل إنسان خاطئ أثيم. لذلك كان ينتظر مجيء المسيح الذي هو مشتهى كل الأمم ومخلص للناس أجمعين.

في وقته ظهر السيد المسيح وانتشرت أخباره في فلسطين والأردن وبلاد سوريا والفينيقيين. كان يجتمع رؤساء اليهود ويبحثون في أمره عليه يكون المسيح الموعود الذي كانوا لمجيئه من المنتظرين. لكن كان أكثر أولئك الرؤساء أشراراً أغبياء وقد تمسكوا بقشور الدين معرضين عن اللباب ومن

أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللَّهِ مُعَلِّمًا، لِأَنَّ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنَّ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ مَعَهُ» (يوحنا ٣: ٢). وأظهر له أنه يؤمن به إيمان المنطق والحق واليقين وأن الأعمال والآيات التي يعملها فهي له خير الشاهدين.

جواب المسيح والمحاذة المتبادلة بينهما

قبل أن يكمل الزائر كلامه ويكشف عما في قلبه نرى أن المسيح قد عرف ما كان في سريره من سر دفين وعرف ما هو سؤال قلبه وغرضه في الصميم. كان ذلك الزائر مقتنعاً كل الاقتناع أن الناس جميعهم ولدوا في الخطيئة وكلهم من المذنبين وكان يردد السؤال مع نفسه كيف يتنسى للإنسان أن يخلص من خطيئته ويصير خليفة جديدة ويكون عند الله من المبررين فيرى ملكوت الله الذي هو بر وسلام في كل حين، فأجابته المسيح عن هذا الحق المبين قائلاً له «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ» (يوحنا ٣: ٣) ويكون من المبررين ولو ظن ذلك الإنسان ثانية وهل يقدر أن يرجع إلى بطن أمه ويكون مري أخرى من المولودين؟ وتابع المسيح حديثه قائلاً «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ» (يوحنا ٣: ٥) ويكون فيه من المواطنين وأضاف قائلاً «الْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ» (يوحنا ٣: ٦).

كان هذا الزائر على علم بعقيدة كانت تسيطر على أكثر قادة أمته الذين كانوا يحسبون أن الدخول إلى ملكوت الله يُنال عن طريقين (١) عن طريق التسلسل من إبراهيم ولذلك كانوا يفتخرون أنهم أولاد إبراهيم. ولما جاء يوحنا ويخهم بقوله لهم «يَا أَوْلَادَ الْأَفَاعِي... اضْعَوْا أُمَّارًا تَلِيْقُ بِالتَّوْبَةِ. وَلَا تَتَّبِدُوا تَقُولُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبَا. لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هَذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلَادًا لِإِبْرَاهِيمِ» (لوقا ٣: ٧ و٨). وهو أقدر القادرين. (٢) كانوا يعتمدون على الأعمال الصالحة والبر الذاتي الذي هو من صنع الإنسان الأثيم. لذلك أراد المسيح أن يقضي على هذا الاعتقاد ويزيله من أفكار الناس فأظهر له أولاً ضرورة الولادة من فوق أي من الله لأنها هبة منه تعالى وليست موروثه من الوالدين كما وأنها ليست من صنع الإنسان لأنها من صنع الله العظيم وأظهر له الخطأ الذي ارتكبه القادة وقد سيطر عليهم منذ وقت طويل.

بريء ويكون الحكام من المبررين؟ كلا، كلا إن هذا لا يمكن ونهض لفوره من سريره وابتدأ يفتش في كتب الدين وكان بها يستعين لعله يهتدي إلى حل وإليه يستكين. وقال في نفسه إن هذا الشخص الذي يقاومه قادتنا ليس سوى ذلك المسيح المنتظر الذي جاء ليؤسس على الأرض ملكوتاً سماوياً وإني ألاحظ أن تعاليمه ليس لها مكان في قلوب قادتنا فنعتهم بالأشرار المرائين.

أواه ألا يتسنى لأمتنا الدخول في هذا الملكوت وقال لهم إن ملكوت الله يُنزع منهم ويُعطى لأمة تعطي أثماره وتكون به من الكارزين. كيف يدخل المولدين في الخطيئة إلى ملكوت الله ويكونون من المبررين. ألم يقل نبينا داود «بِالْحَطِيئَةِ حَبَلْتُ بِي أُمِّي» (مزمو ٥١: ٥) ألم يقل أيضاً «لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلَا وَاحِدٌ» (رومية ٣: ١٢) وقال أنه «لن يتبرر عند الله أحد» وصلى قائلاً «قَلْبًا تَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اللَّهُ» (مزمو ٥١: ١٠) ألم يقل نبينا إشعياء «كَلْنَا كَعَمَمٍ صَلَّلْنَا. مَلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ» (إشعياء ٥٣: ٦) فإذا نحن نضل في تبريرنا لأنفسنا ونكذب الله الذي قال لن يتبرر أمامه حي.

ألا ينطبق حكم الله هذا على جميع البشر من أمم وإسرائيليين على السواء. إذ كيف يتسنى لنا الدخول إلى ملكوت الله ونكون فيه من المواطنين؟ وفي أقل من طرفة عين أمسى مستعداً للسير وهو يسأل نفسه إلى أين أنا سائر؟ إني سأذهب غير متردد لزيارة ذلك المعلم السماري. بالحق هو المسيح إنه صادق فيما يقول أن أعماله والآيات التي يفعلها تبرهن على صدقه ولو كذبه المفسدون. سأذهب إليه في هذا الوقت من الليل سأكشف له عما في قلبي وأسلم له أمري لأن نبينا داود قال «إِلَيْكَ يُسَلِّمُ الْمَسْكِينُ أَمْرَهُ» (مزمو ١٠: ١٤) سأضع الأمر أمامه لأنه ينشئي الحق ولا يخفى وسأسأله كيف يتسنى للإنسان المولود بالخطيئة أن يدخل إلى ملكوت الله إني سأجد عنده الجواب الشافي لأنه يتكلم كمن له سلطان وليس كغيره من رجال الدين. سأحصل على نتيجة وها أنا جاد في السير. كان الهدوء سائداً في ذلك الهزيع من الليل لأن الناس كانوا نياماً وعلى أسرهم هاجعين.

سار إلى حيث كان يسكن المسيح وما أن قرع الباب حتى فتح له لأن المسيح كان عارفاً بأمره قبل أن يجيء فهو يعرف قلوب الناس وخفياهم. عرف زائره من بعيد وعرف ما في داخله من سر دفين. وأراد أن يعطيه سؤال قلبه وأن يكون له خير معين. وابتدأ الزائر يقول له «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ

وجده بل ينبغي أن يولد ثانية ويختبر هذا العمل الروحي الفريد العديم المثال والجزيل الأهمية، نراه يسأل مرى أخرى مشدداً وقائلاً كيف يكون هذا وكان قلبه يتلهف ليتعلم ويستنير. فيجيبه المسيح مع قليل من التأنيب أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا. أي المفروض فيك كمعلم في إسرائيل أن تعرف السبب الذي لأجله يأتي المسيح. إذا لم يأتي ليجد حياة المؤمنين به ويجعلهم يولدون ثانية للحياة الأبدية ويؤسس ملكوته في قلوبهم فما هو الفرق إذاً بينه وبين الأنبياء الآخرين؟ ولماذا انفرد بهذا الاسم أي المسيح الذي تنبأ جميع الأنبياء عن مجيئه واشتهوا أن يروا يومه وكانوا له من المنتظرين؟

ولكي يشعره أنه أحد الأقانيم قال له «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّا (أَيُّ الْآبِ وَالْكَلِمَةِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ) إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ بِمَا نَعْلَمُ وَنَشْهَدُ بِمَا رَأَيْنَا، وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَ شَهَادَتَنَا» (يوحنا ٣: ١١) لأن لو قبل الناس شهادة الله عن الإنسان أنه خاطئ أثم وأن خلاصه ليس بيده ولكن بالله رب العالمين الذي بشر بكلمة منه اسمه المسيح الذي يكون مخلصاً وفادياً للناس أجمعين لكانوا خلصوا وصاروا من المفتدين المنعمين. وقد أبان له أنه من العسير على الناس أن يفهموا جمع الأمور الأرضية فكم بالحري يستطيعون معرفة الأمور السماوية وأن يكونوا لها من الفاهمين. لكن لا بد أن يأتي يوم تنكشف أسرار الكون جميعها ونعرف الأمور السماوية لأننا سنعرف كما عرفنا وذلك ما عني عندما قال له «إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمْ الْأَرْضِيَّاتِ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ، فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمْ السَّمَاوِيَّاتِ؟» (يوحنا ٣: ١٢) تابع المسيح حديثه له وأعلن أنه في السماء وعلى الأرض في آن واحد إذ قال «لَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ابْنُ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ» (يوحنا ٣: ١٣). بذلك نبر على أقوميته ليقوي إيمان زائره ويشدده ليقبله ويؤمن به ويولد ثانية للحياة الأبدية ويكون من المنعمين.

كيف يولد الإنسان ثانية؟

وقد وُلد الإنسان في الخطيئة وصار من الضالين المتمردين وحتماً أضحى من الهالكين فكيف يتسنى له أن يخلص ويُنقذ له أن يولد ثانية للحياة الأبدية ويدخل ملكوت الله ويكون من الأبرار المنعمين. أوضح المسيح ذلك بايتين وذكر في آخر كل واحدة منها بل تكون له الحياة الأبدية بعد أن أنب زائره وأشعره بأنه يجب أن يلتجئ إليه ويثق به ويؤمن بأقوميته ولاهوته وأنه في السماء وعلى الأرض في وقت واحد وأظهر له أنه يعلم بكل ما قضى الله

أما قوله عن ضرورة الولادة من الماء والروح فإنه ذكر الماء أولاً ومن ثم الروح ليذكره أن هذا الخطأ قد سيطر عليهم منذ أيام النبين إرميا وزكريا وسيطر على الكثيرين من بعدهم حتى يومنا الحاضر لذلك قال الله عن لسان إرميا «لَأَنَّ شَعْبِي عَمَلٌ شَرِّينَ: تَرَكُونِي أَنَا يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ، لِيَنْقَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَبَارًا، أَبَارًا مُشَقَّةً لَا تَضْبُطُ مَاءً» (إرميا ٢: ١٣). وعن لسان زكريا إذ قال «لَا بِالْقُدْرَةِ وَلَا بِالْقُوَّةِ، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (زكريا ٤: ٦). كما أنه أراد أن يرشده إلى ينبوع الماء الحي الذي كان هو نفسه. وإن ذلك العمل هو عمل روح الله كما قال زكريا. ولكي يولد الإنسان من فوق يجب أن يؤمن به ويعرفه أنه هو الماء الحي الذي دعي إليه العطاش في أيام إشعيا وغيره من الأنبياء، ليرشده إلى نفسه كما أرشد المرأة السامرية في الفصل الذي يلي هذا الفصل إذ قال لها لو علمت عطية الله ومن هو الذي يكلمك لطلبت أنت منه ماء حياً وإن الذي يشرب من ذلك الماء لن يعطش إلى الأبد ويولد من فوق ويصير خليفة جديدة. وقد وضع المسيح رسم المعمودية لأن الغسل الخارجي يرمز للغسل الداخلي الروحي وأنه بعمل الروح القدس الحفي يولد ثانية ويخلص ويستنير. ويجيا إلى الأبد ولا يكون من الهالكين. وتابع المسيح حديثه لزائره وقال لا تتعجب إنني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق لأن هذا هو عمل الله الذي أنتم بعمله مخلوقين في المسيح يسوع «لَا تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقِ (يوحنا ٣: ٧) لأن هذا هو عمل الله الذي أنتم بعمله «مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لِأَعْمَالِ صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللَّهُ فَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا» (أفسس ٢: ١٠)

ثم قدم له مثال الريح التي «تَهْبُ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لَكِنَّكَ لَا تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلَا إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ» (يوحنا ٣: ٨) هكذا الذي يولد ثانية بالإيمان بالمسيح يسوع وإن كنا لا نرى تغييراً في جسده ولا تبديلاً في غرائزه أو في هيئته الخارجية غير أننا نلمس فيه تغييراً عجباً مع أننا لا نفهم كيف تم ذلك لكننا نعرف أنه قد استقى من ينبوع الحي وصار إنساناً جديداً في تفكيره وفي أعماله وفي استعمال غرائزه وفي جميع تصرفاته. نسمعه بهلل ويسبح الله بعد أن كان يشتم ويظفر كما قيل في المزامير «إِنْتَظَرَا أَنْتَظَرْتُ الرَّبَّ فَمَالَ إِلَيَّ وَسَمِعَ صُرَاخِي، وَأَضْعَدَنِي مِنْ جَبِّ الْهَلَاكِ، مِنْ طِينِ الْحُمَاءِ، وَأَقَامَ عَلَيَّ صَخْرَةً رَجُلِي». ثَبَّتْ خُطُوَاتِي، وَجَعَلَ فِي فَمِي تَرْزِيمَةً جَدِيدَةً تَسْبِيحَةً لِإِلَهِنَا. كَثِيرُونَ يَرَوْنَ وَيَخَافُونَ وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَى الرَّبِّ» (مزمو ٤٠: ١-٣). ولما كان الزائر متشوقاً لتلك الولادة الجديدة وعرف أنه لا سبيل أن ينال ويدخل ملكوت الله يجهوده

واهلاك المبين. فشأت تلك المحبة غير المحدودة والتي ليس لها ند ولا نظير أن ترسل لهم عوناً ونجدة فلنسمع ما قاله أحد الأقيانيم شاهداً بذلك الحق المبين عن علم ومعرفة ويقين. فلنؤمن به ونصدقه ولا نكون من المتهاونين.

«لأنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَدَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣: ١٦) السبب هو محبة الله وليست في أو فيك أيها القارئ المستجير. ولدنا في الخطية. وحكم علينا بالموت الأبدى واهلاك المبين «النفس التي تخطئ هي تموت» (حزقيال ١٨: ٤) وتهلك إلى أبد الأبد. الحكم هو حكم الله فكيف يتبرر الخاطئ الأثيم؟ إلا أن محبة الله صادقة وهي حق وصدق الله العظيم أنه قد بذل ابنه الوحيد إذ أرسله إلى العالم وهو لم يستتكف أن يتخذ طبيعتنا ويصير إنساناً وعبداً لرب العالمين ويكون للناس آية ورحمة ومن المفتدين. الذي يؤمن به حقاً يولد ثانية للحياة الأبدية ولا يمكن أن يكون من المهلكين لأنه قد اقتدي وأنعم عليه من رب العالمين. لذا نرى المسيح قد قال في مكان آخر لليهود المتعصبين إذا لم يحرركم الابن فلا تستطيعون أن تكونوا من خطاياكم من المتحررين «لأن أجرَةَ الْخَطِيئَةِ هِيَ مَوْتُ، وَأَمَّا هِبَةٌ اللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ» (رومية ٦: ٢٣).

سبحان واهب هذا الخلاص لجميع الناس وهو رب عظيم قدير. قد كلم المسيح الإمرأة السامرية المتشوقة لإرواء غليل قلبها من ينباع الخلاص وقال لها «لَوْ كُنْتَ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ اللهِ، وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَكَ أَعْطِينِي لِأَشْرَبَ، لَطَلَبْتَ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكَ مَاءً حَيًّا» (يوحنا ٤: ١٠). ذلك هو الماء الحي والماء السلسبيل. الذي قال أيضاً «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتَعَبِينَ وَالتَّثْقِيلِي الْأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرْجِكُمْ» (متى ١١: ٢٨) ووقف أيضاً في اليوم الأخير العظيم من العيد ونادى قائلاً إن عطش أحد فليأتي إلي ويكون من المرتوين. هلما يا أخي القارئ وتناول كأس الخلاص من يد ربك العظيم وآمن بحمل الله العظيم الذي بذل نفسه لأجلك لكي تكون من المفتدين آمن به لتولد ثانية للحياة الأبدية فَيُتَّاحَ لَكَ الدخول إلى ملكوت الله وتكون فيها مواطناً ومخلصاً ومن المنعمين.

درس من العناصر الطبيعية

معلوم أن عناصر الطبيعة تقسم إلى ثلاثة ممالك: مملكة الجماد ومملكة النبات ومملكة الحيوان. بزره مجردة التي هي بزره نبات تُزرع في كتلة من التراب التي هي جماد ويضع الخالق في تلك القطعة الترابية غذاء لتلك البزره التي دفنت

به قبل خلق العالمين وأنه الكلمة الذي كان عند الله والذي كان الله وأنه أحد الأقيانيم. أراد أن يستدرج زائرته لحادثة واقعية قد حصلت لبني إسرائيل في البرية وكان يعلم بها زائرته علم اليقين. وهي لما أخطأ بنو إسرائيل في تيههم في البرية سلط الله عليهم الحيات السامة فلذعتهم وكانوا جميعاً عرضة للموت الأليم لكنهم في ضيقهم صلوا إلى الله فاستجاب لهم وكان لهم من المنجدين إذ أمر عبده موسى لكي يصنع حبة نحاسية ويعلقها على خشبة ويدور بها في المخيم وينادي لجميع الذين لذعتهم الحيات ونفتت سمومها فيهم أن ينظروا إليها ويشفوا ويعودوا إلى الحياة ويكونون من المعافين فنبر المسيح على هذا الأمر وقال «وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الْإِنْسَانِ لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣: ١٤ و١٥). ويكون من المنعمين. بذلك قد حلت المشكلة التي كان الزائر في حيرة من جهتها إذ أظهر له انه سيرفع على خشبة ويتم عمل الفداء الذي أشير إليه بالذبح العظيم وأنه هو وحده الذي سيكون «حَمَلُ اللهِ الَّذِي يُرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ» (يوحنا ١: ٢٩) ويكفر عن خطايا المذنبين وعنه تنبأ إشعياء عندما قال «التَّقْتُوا إِلَيَّ وَأَخْلُصُوا يَا جَمِيعَ أَقْصِي الْأَرْضِ» (إشعياء ٤٥: ٢٢) وهو الذي تعين فادياً ومخلصاً للناس أجمعين. لأنهم بنظرة الإيمان إليه يولدون ثانية للحياة الأبدية بعد أن كانوا مولودين في الخطية ومن المهلكين. سبحان الله الرحمن الرحيم ذلك الثالوث القديم الذي دبر هذا الخلاص العظيم ليتيح للجميع أن يولدوا ثانية ويكونوا من المبررين المنعمين.

السبب الرئيسي لهذا العمل

أما وقد تشوق الزائر لهذا الأمر العظيم وصارت نفسه تتوق ليولد ثانية ويكون من المؤمنين. نرى أن المسيح قد أتحفه بأية ليستدل بها ويستعين ويعرف السبب الأساسي لهذا العمل الفذ الذي خفي عن أكبر الفلاسفة وعن كبار الرجال المتعلمين وأن ذلك العمل العظيم ليس سوى عمل الله المثلث الأقيانيم. فأظهر له أن كل ذلك قد تم وأن السبب الرئيسي لم يكن في الناس وليس في أي بشر ما يدعو لذلك ولو كان من أكبر الصالحين. لكن هو في الله الذي لا إله إلا هو الذي هو محبة وهو تعالى من أعظم المحبين. وهذه الصفة كانت فيه قبل خلق الملائكة والناس أجمعين. وقد تبودلت بين الأقيانيم. ومن فيض تلك المحبة نراه تعالى قد شاء أن يشترك البشر الذين قد وقعوا في شبكة الشيطان الرجيم الذي هو الحية القديمة التي أغرت البشر ونفتت فيهم سموم الخطية فصاروا من أبناء الموت

نتغاضى عن هذا الأمر المهم وكما قيل «لَا تُقْسُوا قُلُوبَكُمْ، كَمَا فِي يَوْمِ مَسَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ» (مزمو ٩٥: ٨) ولنعرف أن لهذا الأمر علاقة بخلاص نفوسنا وبالحياة الأبدية ويوم الدين. «مَاذَا يَنْتَفِعُ الْإِنْسَانُ لَوْ رَجَحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟» (مرقس ٨: ٣٦).

إذا لم نؤمن نكون لله من المكذبين ونرفض شهادة الله العظيم ونكون حتماً من الهالكين. الحذر الحذر من الإقدام على هذا العمل المشين. اللهم ارحمنا وساعدنا لنكون من المؤمنين لأنك أرحم الراحمين وأعظم المحبين. فاستجب لنا يا رب العالمين «لأنه لا ملجأ منك إلا إليك» فكن لنا ملجأ دائماً وخير معين وكن لنا الولي والنصير اللهم آمين ثم آمين.

قصة خلاص القبطان

درس كثيراً وخاض في جميع العلوم وارتقى وصار قبطاناً وكان غنياً وكان يملك مركباً بحرياً وكان من المثريين. لم يكن مؤمناً بالله وكان للمؤمنين من أشد الأخصام والمقاومين. تعقب جميع الذين آمنوا بالله ولم يسمح لموظف في مركبه أن يحظى على نسخة من الكتاب المقدس ولو إلى حين. مرض واشتدت وطأة المرض عليه حتى أنه كان يخشى عليه من الموت الأليم. وما أن أحس بذلك إلا واستيقظ ضميره وابتدأ يطلب نجدة ورحمة من رب العالمين. ونظر إلى الذين حوله راجياً أن يؤتى إليه بكتاب مقدس لكي يستنير به وبه يستعين فوجدوا في المركب فتى كان يملك كتاباً مقدساً وكان يقدره أعظم تقدير. هذا قد جيء به إلى القبطان وقد خشي الفتى القصص والحرمات وكان من المرتعبين. استنجد متضرعاً وقال يا سيدي القبطان لست من الكسالي ولا من الذين لأعمالهم من المهملين ولا أقرأ كتابي هذا إلا في وقت فراغي وأواظب على عملي في كل حين. وبعد أن هدأوا روعه طلب منه القبطان أن يتحفه بآية كتابية لتوجد فيه رجاء وتعزية لأنه أصبح من الأموات المحتضرين فأجاب الفتى إن أمني علمتني أن أضع اسمي تحت فقرات من سفر إشعيا ٥٣. فتلا الآيات التي كان نصها كما يلي «مَجْرُوحٌ لِأَجْلِ مَعْصِيَتَا، مَسْحُوقٌ لِأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبٌ سَلَامِنَا عَلَيْهِ، وَبِحَبْرِهِ شَفِينَا» (إشعيا ٥٣: ٥) بعد أن تليت فقرة فقرة وأصغى إليها القبطان إصغاء المتلهف المتشوق طلب من الفتى أن يكرر القراءة ويضع اسمه تحت كل فقرة ففعل الفتى كما أمر وكرر ذلك عدة مرات. وما أن سمع ذلك إلا وقد فتح ذهنه وقلبه وكان من المؤمنين.

فيها وماتت أما هي فتمتص غذاء من تلك الكتلة الترابية فتنتبت وتحيا فيتحول قسماً كبيراً من ذلك الجماد نباتاً وبتلك الطريقة السريّة العجيبة ينتقل ذلك القسم من الحجار إلى ممكلة النبات فيصير شجرة أو حنطة أو عشباً... كذلك يأخذ الحيوان النبات مهما كان نوعه فيأكله وبهضمه تنتقل تلك الكمية النباتية في الحيوان إلى ممكلة الحيوان وتصير لحمًا ودمًا وعظاماً... وتعد داخلة إلى ممكلة الحيوان. بنفس الطريقة أراد الخالق رحمة منه تعالى أن ينقل الإنسان من المملكة الحيوانية والإنسانية إلى مملكة أرقى وأعظم ويتيح له أن يولد ثانية وينتقل للملكوت الله وذلك بإرساله الكلمة الذي هو كلمة منه اسمه المسيح ألقاها إلى مريم واتخذ منها بشراً سوياً وهذا الكلمة المتأنس قد بذله الله ليفتدي الإنسان كي يتسنى له أن يولد ثانية ويدخل إلى ملكوت الله فيكون من أبناء هذا الملكوت ومن المنعمين لذلك قال الله في الإنجيل «أَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ الَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ، بَلْ مِنْ اللَّهِ» (يوحنا ١: ١٢ و ١٣).

نحن في حاجة ماسة إلى الولادة الجديدة ولا يمكننا بوجه من الوجوه أن نناها إلا عن طريق تجسد الكلمة وموته لأجلنا لكي نحيا به. وإن كان ذلك العمل يعد عجباً كما سبق وتنبأ إشعيا عنه قائلاً «مَنْ صَدَقَ خَبْرَتَنَا، وَلِمَنْ اسْتَعْلَيْتَ ذِرَاعَ الرَّبِّ؟ نَبَتَ قَدَامَهُ كَفْرَخٍ وَكَعْرَقٍ مِنْ أَرْضِ يَابَسَةٍ، لَا صُورَةَ لَهُ وَلَا جَمَالَ فَنَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَلَا مَنْظَرَ فَشْتَهِيهِ. مُحْتَقِرٌ وَمَحْدُولٌ مِنَ النَّاسِ، رَجُلٌ أَوْجَاعٌ وَمُخْتَبِرُ الْحَزْنِ، وَكَمُسْتَرٌّ عَنْهُ وَجُوهُنَا، مُحْتَقَرٌ فَلَمْ نَعْتَدْ بِهِ. لَكِنَّ أَحْزَانَنَا حَمَلَهَا وَأَوْجَاعُنَا تَحَمَلَهَا. وَنَحْنُ حَسِبْنَاهُ مُصَابًا مَضْرُوبًا مِنَ اللَّهِ وَمَذْدُولًا. وَهُوَ مَجْرُوحٌ لِأَجْلِ مَعْصِيَتَا، مَسْحُوقٌ لِأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبٌ سَلَامِنَا عَلَيْهِ، وَبِحَبْرِهِ شَفِينَا. كُلْنَا كَعَنَمٍ ضَلَلْنَا. مَلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا» (إشعيا ٥٣: ١-٦).

إذا ولدنا مرة في الجسد نموت مرتين الموت الجسدي ويلي الموت الروحي ولكن إذا ولدنا مرتين مرة من والدنا ومرة بقبولنا الله الكلمة المتأنس نموت مرة فقط الموت الجسدي لأن الموت الثاني الذي هو الموت الروحي ليس له سلطان علينا. كما قيل «لَا شَيْءٌ مِنَ الدَّيْتُونَةِ الْآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبِ الرُّوحِ» (رومية ٨: ١). وكما قال الكلمة المتأنس «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَى» (يوحنا ١١: ٢٥). فلنقبله ونكون باسمه من المؤمنين ولا

استعان بربه وقبل المسيح كمجروح لأجل معاصيه
ومسحوق لأجل آثامه وأن سلامه يتوقف عليه. فاحتل قلبه
السلام وكان يشعر بأمان واطمئنان وقال ربي إني وإن كنت
من المحتضرين لا أخشى من الدينونة ويوم الدين. وعرفت
أنك لا تتخذ من يلتجئ إليك وبك يستعين. اقترب إليك
باسم الذي فداني ومات عني وأحياني سبحانك ربي إني من
أعظم المنعمين وقد غفرت ذنبي وصرت لي من الغافرين.
بعد ذلك الاختبار الجديد شُفي القبطان وأوقف وقته وأمواله
على خدمة بني الإنسان وبث بشرى الإنجيل لجميع
المحتاجين وخدم جيله وكان بركة للكثيرين. وهكذا خلص
وولد ثانية وصار من الناس النافعين. المجد لله الذي
بنعمته ومحبه يخلص الخاطيء الأثيم ويقبل التائبين إليه حقاً
ويجعلهم أن يكونوا من المنعمين.

Call of Hope
P.O.Box 10 08 27
D-70t007 Stuttgart
Germany